دُمُــــوع الـمُتَهَجِّدِينَ
وَمُنَــــاجَاتِهِم

سبحانك سبحانك .. لك الجلال والجمال ولك الكمال ... أنت أنت ..
سبحانك قدستك ألسن الماديح وأفواه التسابيح

لها الحب حتى يلصق القلب بالحشا
وتذبل حتى ما تجيب المناديا
وتنحل حتى ما يُبَقى لك الهوى
سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

* * *

نزف البكاء دموع عينك فاستعر
عينًا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يُعيرك عينه تُبكى بها
أرأيت عينًا للدموع تعار ! !

اعلم رحمك الله أن البكاء هو من أعظم ما تقرب به العابدون ، واسترحم به الخائفون ، ولا يذكر التهجد إلاّ ويذكر البكاء ، ولا يذكر الليل إلا وقارنه ذكر الدموع . وَمَنْ أرقّ من المتهجدين أفئدة حين اتخذوا من الدمع رسولهم لربهم . فالدمع ألح شفعائهم ، وهم كاتبوا الله بدموعهم وهم ينتظرون الجواب

صحائفنا إشارتنا وأكثر رسلنا الحرق
لأن الكتب قد تُقْرَا بغير الدمع لا نثق

قال ﷺ :

« **عينان لا تمسها النار أبدا : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله** »[(1)] .

● ضرب عامر بن عبد قيس بيده على عينه فقال : جامدة شاخصة لاتندى[(2)] .

● وقيل لصفوان بن محرز عند طول بكائه وتذكر أحزانه : إن ذلك يورث العمى ، فقال : ذلك لها شهادة فبكى حتى عمى[(3)] .

ولكم تحلو مناجاة المتهجدين لمولاهم وقد خالطها الدموع .. لكم يحلو البكاء وتحلو المناجاة وقد أرخى الليل سدوله ، وكأنّ القوم جعلوا شعارهم قول يحيى بنُ معاذ :

« ليكنْ بيتك الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة ، فإمّا أن تموت بدائك ، وإما أن تصل إلى دوائك »[(3)] .

● عن ثور بن زيد قال : قرأت فى التوراة أن عيسى عليه السلام قال :

---

(1) صحيح : رواه الضياء عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٣٩٩٢ .
(2) البخلاء للجاحظ ص ٦ طبع دار المعارف تحقيق طه الحاجرى الطبعة السادسة .
(3) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٩١ .

« يا معشر الحواريين كلّموا الله كثيرًا ، وكلّموا الناس قليلاً . قالوا : كيف نكلم الله كثيرًا ؟ قال : « اخلوا بمناجاته اخلوا بدعائه »[1] .

● وقال أحد الصالحين فى مناجاته لربه :

« إذا سئم البطالون من بطالتهم فلن يسأم محبوك من مناجاتك وذكرك »[2] .

● قال عابد باليمن : « سرور المؤمن ولذته فى الخلوة بمناجاة سيده »[3] .

● وعن عبد العزيز بن سليمان الراسبي ـ وكانت رابعة تسميه سيد العابدين ـ أنه قيل له : « ما بقى مما يتلذذ به ؟ قال : سرداب أخلو بربى فيه »[4] .

● وعن مسلم العابد قال : ما يجد المطيعون لله لذة فى الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم ، ولا أحب لهم فى الآخرة من عظيم الثواب أكبر فى صدورهم وألذ فى قلوبهم من النظر إلى الله عز وجل ثم غشى عليه »[5] .

● وقال بكر المزنى : « مَنْ مثلك يا ابن آدم ، خُلِّيَ بينك وبين المحراب والماء ، كلما شئت دخلت على الله عز وجل ليس بينك وبينه ترجمان »[8] .

● قال نصر : اجتمعنا ليلة على الساحل ومعنا مسلم أبو عبد الله فقال رجل من الأزد :

ما للمحب سوى إرادة حبه   إن المحب بكل بر يضرع

قال : فبكى مسلم حتى خشيت والله أن يموت[6] .

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس لابن رجب ص ٤٥ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ص ٣٧ .
(٣) استنشاق نسيم الأنس ص ٤٦ .
(٤) استنشاق نسيم الأنس ص ٤٧ .
(٥) استنشاق نسيم الأنس ص ٤٦ .
(٦) استنشاق نسيم الأنس ص ٣٩ .

وعن حبيب أبي محمد أنه كان يخلو فى بيته ثم يقول :

« من لم تقر عينه بك فلا قرت ، ومن لم يأنس بك فلا أنس »[1] .

انظر أخى إلى دموع البكائين ومناجاة قلوبهم تجد لسان حالهم يقول :

نزف البكاء دموع عينك فاستعر
عينًا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكى بها
أرأيت عينًا للدموع تعار

حتى نصبح بأعيننا الجامدة ... « لماذا الجفاف يا عين » .

• كان داود الطائى يقول فى جوف الليل : « اللهم همك عطّل علىّ الهموم ، وحالف بينى وبين السهاد ، وشوقى إلى النظر إليك أوثق منى ، وحال بينى وبين اللذات ، فأنا فى سجنك أيها الكريم مطلوب » .

قالوا تشاغل عنا واصطفى بدلاً
مِنّا وذلك فِعْلُ الخائن السالى
وكيف أشغل قلبى عن محبتكم
بغير ذكركمُ يا كلّ أشغالى

• قال عبد الرحمن بن مهدى : « ما عاشرت فى الناس رجلاً أرق من سفيان الثورى ، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة ، فما كان ينام إلا أول الليل ثم ينتفض فزعًا مرعوبًا ينادى : النار النار شغلنى ذكر النار عن النوم والشهوات ، ثم يتوضأ ويقول على أثر وضوئه : « اللهم إنك عالمٌ بحاجتى غير معلم ، وما أطلب إلا فكاك رقبتى من النار ، إلهى إن الجزع قد أرّقنى ، وذلك من نعمك

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص ٤٦ .

السابغة عليّ . إلهي لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين » ثم يقبل على صلاته وكان البكاء يمنعه من القراءة حتى إن كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه »[1] .

● – وكانت خنساء بنت خدّام : إذا جنّ عليها الليل وهدأت العيون وسكنت الحركات تقول : « يا حبيبَ المطيعين ، إلى كم تحبس خدود المطيعين في التراب ؟ ابعثهم حتى ينجزوا موعدك الصادق الذى أتعبوا له أنفسهم ثم نصبوا » فتبكي الدور التي حولها .

● قال الحسن البصرى : يا حُسنَ عين بكت في جوف الليل من خشية الله عز وجل[2] .

● كانت مع هشام بن عطية جارية في الدار فكانت تقول : أى ذنب عمل هذا ؟ مَنْ قتلَ هذا ؟ فتراه الليل كله يبكى .

وكـيـف تـنـام الـعين وهى قـريـرة
ولم تـــدر فى أيّ المحلين تـنـنـــزل

● قال الحسن بن عرفة ليزيد بن هارون : يا أبا خالد : ما فعلت العينان الجميلتان ؟ قال : « ذهب بهما بكاء الأسحار » وحين سئل عن حزبه قال : وأنام من الليل شيئًا ! ! إذاً لا أنام الله عيني .

● وكان حبيب العجمى أبو محمد رقيقًا ، من أكثر الناس بكاءً ، فبكى ذات ليلة بكاءً كثيراً ، فقالت عمرة ـ زوجته ـ لم تبكى يا أبا محمد ؟ فقال لها : دعيني فإني أريد أن أسلك طريقًا لم أسلكه من قبل[3] .

---

(١) الحلية جـ٧ ص ٦٠ .
(٢) الزهد لابن حنبل ص ٢٨٢ .
(٣) الحلية جـ٦ ص ١٥٤ .

وكان عمر بن المنكدر لا ينام الليل يكثر البكاء على نفسه ، فشقّ ذلك على أمه فقالت لأخيه محمد بن المنكدر : إن الذى يصنع عمر يشقّ عليّ فَلَوْ كلّمته فى ذلك ، فاستعان عليه بأبى حازم ، فقالا له : إن الذى تصنع يشق على أمك . فقال : فكيف أصنع ؟ إن الليل إذا دخل عليّ هالنى فأستفتح بالقرآن ، وما تنقضي نهمتى فيه . قالا : فالبكاء ؟ قال : آية من كتاب الله أبكتنى . قالا : وما هى ؟ قال : قوله عز وجل ﴿ **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون** ﴾ .

● – وكان عتبة الغلام يقول فى ليله على ساحل البحر : « إن تعذبنى فإنى لك محب ، وإن ترحمنى فإنى لك محب » فلم يزل يرددها ويبكى حتى مطلع الفجر . وكان رحمه الله يبكى من السّحر بكاءً شديدًا ويقول لمّا يُسأل فى ذلك : « إنى والله ذكرت يوم العرض على الله ، ثم يقول وقد غشى عليه : « قطّع ذكرَ يوم العرض على الله أوصال المحبين » ، ويقول تراك مولاى تعذب محبيك وأنت الحى الكريم .

ويقول عنه عبد الواحد بن زيد : ربما سهرت مفكرًا فى طول حزن عتبة ، وقد كلّمته ليرفق بنفسه فقال : « إنما أبكى على تقصيرى » ، وكان لا ينقطع بكاؤه فى مجلس عبد الواحد فكلموا عبد الواحد وقالوا : إنا لا نفهم كلامك من بكاء عتبة . فقال : فأصنع ماذا ؟ يبكى عتبة على نفسه وأنهاه أنا لبئس واعظ قوم أنا !! (١) .

● لما رأت أم الربيع بن خيثم ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته فقالت : « يا بنى لعلك قتلت قتيلاً ؟ فقال : نعم يا والدة ، قتلت قتيلاً . فقالت : ومن هذا القتيل يا بنى نتحمل على أهله فيعفوك ، والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسهر لقد رحموك ، فيقول : يا والدتى هى نفسى » .

---

(١) صفة الصفوة جـ١ ص٣٧٠ ، ٣٧١ .

● أما منصور بن المعتمر فقد قسّم الليل ثلاثاً : فكان ثلث الليل يقرأ ، وثلثه يبكي ، وثلثه يدعو .

● بكى مسعر بن كدام فبكت أمه فقال لها مسعر : ما أبكاك يا أماه ؟ فقالت : يا بني رأيتك تبكي فبكيت . فقال : يا أماه لمثل ما نهجمُ عليه غداً فلنطل البكاء ، قالت : وما ذاك فانتحب فقال : القيامة وما فيها . قال ثم غلبه البكاء فبكى(١) .

رحمك الله يا مسعر ، ولله در سفيان بن عيينة حين يفتخر بك وبالصالحين من أحبابه فيقول :

أجاعتهم الدنيا فخافوا ولم يزل ... كذلك ذو التقوى عن العيش ملجما
أخوطيء داود منهم ومسعر ... ومنهم وهيب والعريب ابن أدهما
وحسبك منهم بالفضيل مع ابنه ... ويوسف إن لم يأل أن يتسلما
وفى ابن سعيد قدوة البر والنهى ... وفى الوارث الفاروق صدقاً مقدما
أولئك أصحابى وأهل مودتى ... فصلى عليهم ذو الجلال وسلّما
فما ضرّ ذو التقوى نصال أسنّةٍ ... ومازال ذو التقوى أعز وأكرما(٢)

● كان أنس بن مالك يقول لثابت البنانى : ما أشبه عينك بعيني رسول الله ﷺ . ولما كان كثير البكاء اشتكى عينه فقال له الطبيب : اضمن لى خصلة تبرأ عينك . قال : وما هي ؟ قال : لا تبك . قال : وما خير عين لا تبكي(٣) .

---

(١) صفة الصفوة جـ٣ ص ١٣٠ .
(٢) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٤٩٨ للدكتور مجاهد مصطفى ـ منشورات وزارة الأوقاف بالعراق .
(٣) صفة الصفوة جـ٣ ص ٢٦٢ .

ولقد بكى وَرّاد العجلى فى مجلس وعظ ابن ذر فقال ابن ذر : ما الذى قصر بنا وكلم قلبه حتى أبكاه ؟ والله إنْ هذا يا أخا بنى عجل إلا من صفاء قلبك وتراكم الذنوب على قلوبنا .

ولما سُئِلت أخته وكانت أصغر منه عن ليله قالت : كان يبكى عامة الليل ، فقالوا لها : فتحفظين من دعائه شيئاً . قالت : نعم . كان إذا كان السحر أو قريب من طلوع الفجر سجد ثم بكى ثم قال : « مولاى . عبدك يحب اجتناب سخطك فأعنه على ذلك بمنّك أيها المنان . مولاى . عبدك يحب الإتصال بطاعتك ، فأعنه عليها بتوفيقك يا أيها المنان ، مولاى ، عبدك عظيم الرجاء لخيرك فلا تقطع رجاءه يوم يفرح الفائزون ، فلا يزال كذلك حتى يصبح »[١] .

● وبكى أسيد الضبى حتى عمى ، وكان إذا عوتب على البكاء قال : الآن حين لا أهدأ ، وأنا أموت غداً ، والله لأبكين ثم لأبكيَنّ ، فإن أدركت بالبكاء خيراً فمن الله وفضله علىّ ، وإن تكن الأخرى فما بكائى فى جنب ما ألقى غداً [٢]

● ولقد بكى بديل بن ميسرة العقيلى حتى قرحت مآقيه ولمّا عوتب قال : إنما أبكى خوفاً من طول العطش يوم القيامة[٣] .

● وقالت جارية محمد بن واسع فى بكائه : هذا رجل إذا جاء الليل لو كان قتل أهل الدنيا مازاد[٤] .

● ولما عوتب عطاء السليمى فى كثرة البكاء قال :

إنى إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه تمثلت لى نفسى بهم ، فكيف لنفس تُغَلّ يدها إلى عنقها وتُسحب فى النار ؟ ألا تصيح فتبكى ؟

---

(١) صفة الصفوة جـ ٣ ص ١٦٢ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٣ ص ١٦٣ .
(٣) صفة الصفوة جـ ٣ ص ٢٦٥ .
(٤) صفة الصفوة جـ ٣ ص ٢٦٧ .

وكيف لنفس تعذب ؟ ألا تبكى ؟ ويحك وما أقل غناء البكاء عن أهله إن لم يرحمهم الله .

وكان رحمه الله يقول : الموت فى عنق ، والقبر بيتى ، وفى القيامة موقفى ، وعلى جسر جهنم طريق ، وربى لا أدرى ما يصنع بى .

وكان يقول أشتهى أن أبكى حتى لا أقدر أن أبكى(١) .

● أخى حتى متى نسهو ونلعب وليلنا ليل البطّالين وملك الموت فى طلبنا لا يكفّ .

● وبكى يزيد بن مرثد .. يسأله عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : مالى أرى عينك لا تجف ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعنى به . قال : يا أخى : إن الله توعّدنى إن عصيته أن يسجننى فى النار ، والله لو لم يوعدنى أن يسجننى إلا فى الحمّام لكنت حريًا أن لا تجف لى عين ، قلت له : فهكذا أنت فى صلاتك ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعنى به . قال : والله إن ذلك ليعرض لى حين أسكن إلى أهلى فيحول بينى وبين ما أريد ، وإنه ليوضع الطعام بين يدى فيعرض لى ، فيحول بينى وبين أكله حتى تبكى امرأتى وتبكى صبياننا ما يدرون ما أبكانا ، وربما أضجر ذلك امرأتى فتقول : يا ويحها ما خصت به من طول الحزن معك فى الحياة الدنيا ، ما يقر لى معك عين(٢) ..

قال مسمع بن عاصم : « بت أنا وعبد العزيز بن سليمان وكلاب بن جرى وسليمان الأعرج على ساحل من بعض السواحل فبكى كلاب حتى خشيت أن يموت ، ثم بكى عبد العزيز لبكائه ثم بكى سليمان لبكائهما ، وبكيتُ والله

---

(١) صفة الصفوة جـ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) التخويف من النار ص ١٩ ، ٢٠ ، انظر الزهد لابن حنبل وابن المبارك .

لبكائهم لا أدرى ما أبكاهم ، فلمّا كان بعد سألتُ عبد العزيز فقلت : يا أبا محمد ما الذى أبكاك ليلتئذ ؟ قال : إنى والله نظرت إلى أمواج البحر تموج وتجيل فذكرت أطباق النيران وزفراتها فذلك الذى أبكانى ، ثم سألت كلاباً أيضاً نحواً مما سألت عبد العزيز فوالله لكأنما سمع قصته فقال لى مثل ذلك .

ثم سألت سلمان الأعرج نحوًا مما سألتهما فقال : ماكان فى القوم شرّ منى ، ما كان بكائى إلا لبكائهم رحمة لهم مما كانوا يصنعون بأنفسهم رحمهم الله تعالى »[١] .

● أمّا الحسن البصرى شيخ البكّائين الذى وصفوه بأنه إذا بكى فكأنّ النار لم تخلق إلا له ، لما قيل له ما يبكيك ؟ قال : أخاف أن يطرحنى غداً فى النار ولا يبالى[٢] . وفى رواية « وما يؤمننى أن يكون اطلع على فىّ بعض زلاتى فقال : اذهب فلا غفرت لك .

لعلك غضبان وقلبى غافل   سلام على الدارين إن كنت راضيا

رحمك الله يا أبا سعيد يامن يصدق فيك قولهم « أهل مكة أعلم بشعابها » حين تقول : « إن المؤمنين قوم ذلت والله منهم الأسماع والأبصار والأبدان حتى حسبهم الجاهل مرضى ، وهم والله أصحاب القلوب ، ألا تراه يقول ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن** ﴾ والله لقد كابدوا فى الدنيا حزناً شديداً وجرى عليهم ما جرى على من كان قبلهم ، والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ، ولكن أبكاهم وأحزنهم الخوف من النار »[٣] .

نعم يا سيدى .. أبكاهم ما أبكى العابدين قبلهم .

وإذا أردت أن تعلم حزن الحسن فانظر إلى قول أم ضيغم بن مالك :

---

(١) التخويف من النار لابن رجب ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) التخويف من النار لابن رجب ص ٢١ .

(٣) التخويف من النار لابن رجب ص ٢٣ .

• خد يا أخي حديث واحد من البكائين وهو ضيغم بن مالك رحمه الله : كان يقول : لو أعلم أن رضاه أن أقرض لحمي لدعوتُ بالمقراض فقرضته .

قال عنه سيار : رأيت ضيغمًا صلى نهاره وليله أجمع حتى بقي راكعًا لا يقدر أن يسجد ، وكان يرفع رأسه إلى السماء ويقول : « قرة عيني » ، وكان رحمه الله إذا سجد يقول : إلهي كيف عزفت قلوب الخليقة عنك !! ، وكان ربما أصابته الفترة . فإذا وجد ذلك اغتسل ثم دخل بيتاً فأغلق بابه وقال : إلهي إليك جئت .

وقال رجل لأم ضيغم : ما أطول حزن ضيغم ، فبكت وقالت : لمثل ما نُدب إليه فليحزن ، ذهب الحسن وأصحابه بالحزن وهل رأيت يا بني محزونًا .

وكانت أم ضيغم تقول له تحب الموت ؟ قال : لا يا أماه . قالت : لم يا بني ؟ قال : لكثرة تفريطي وغفلتي عن نفسي فتبكي أمه ويبكي هو .

• وبكى ليلة من أول الليل إلى آخرهِ لم يسجد فيها سجدة ولم يركع فيها ركعة ، ولما سُئل عن ذلك بكى وقال : « لو يعلم الخلائق ما يستقبلون غداً مالذّوا بعيش أبدًا . والله إني لما رأيت الليل وهوله وشدّة سواده ، ذكرت به الموقف وشدة الأمر هناك ، وكل أمرىء يومئذ تهمه نفسه ﴿ **لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً** ﴾ ثم يشهق رحمه الله ويضطرب .

• وكان رحمه الله يقول : احذر نفسك على نفسك ، فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي ، وأيم الله لئن لم تأت الآخرة المؤمن بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران : همّ الدنيا وشقاء الآخرة . فقال له مولاه أبو أيوب : بأبي أنت ، وكيف لا تأتيه الآخرة بالسرور ، وهو ينصب لله في دار الدنيا ويدأب ؟ فقال : يا أبا أيوب : فكيف القبول ؟ وكيف بالسلامة ؟ كم من رجل يرى أنه

قد أصلح شأنه قد أصلح قربانه ، قد أصلح همّته ، قد أصلح عمله ، يُجمع ذلك يوم القيامة ، ثم يضرب به وجهه[1] .

رحمك الله يا ضيغم وأجزل لك المثوبة وأمّنك يوم الفزع الأكبر .

• تعبد رحمه الله قائماً حتى أقعد ، وقاعداً حتى استلقى ، ومستلقياً حتى أفحم ، فلما جهد رفع بصره إلى السماء وقال : سبحانك ، عجبًا للخليقة كيف أرادت بك بدلاً ، سبحانك عجبًا للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر غيرك ، وعجبًا للخليقة كيف أنست بسواك[2] .

قال الربيع بن أبي راشد ـ الذى قال عنه عمر بن ذر : كنت إذا رأيت الربيع بن أبي راشد كأنه مخمار من غير شراب[3] ـ : « فلولا ما يأمل المؤمنون من كرامة الله عز وجل لهم بعد الموت لانشقت فى الدنيا مرائرهم ولتقطعت أجوافهم » .

• أخي : لقد وعى المتهجدون قول مولاهم ﴿ **أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون** ﴾[4] فبكت عيونهم دواماً .

قال عبد الله بن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهمُ ركوعُ
أطار الخوف نومهمُ فقاموا وأهل الأمن فى الدنيا هجوعُ
لهم تحت الظلام وهم سجود أنين منه تنفرج الضلوع
وخرسٌ بالنهار لطول صمت عليهم من سكينتهم خشوع[5]

(١) صفة الصفوة جـ٣ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى .
(٣) صفة الصفوة جـ٣ ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٤) الأعراف آية ٩٦ .
(٥) التيار الإسلامى فى شعر العصر العباسى ص ٤٩٣ .

● – كانت آمنة بنت أبي الورع من العابدات الخائفات ، وكانت إذا ذكرت النار قالت : أُدخلوا النار ، وشربوا من النار وعاشوا ، ثم تبكى وكأنها حبة على مقلى [1] .

● ويبكى أحد العباد بالليل ويقول : « إن أقل ما ينبغى أن يكون لنفسى عندى أن أبكيها وأبكى عليها أيام الدنيا لعلمى بما يمر عليها غداً » [2] .

● كان فضالة بن صيفى كثير البكاء ، فدخل عليه رجل وهو يبكى فقال لزوجته : ما شأنه ؟ قالت : « زعم أنه يريد سفرًا بعيدًا وماله زاد » [3] .

● وكانت عابدة من أحسن الناس عينًا ، فأخذت فى البكاء فقيل لها : تذهب عيناك . فقالت : إن يكن لى عند الله خير فسيبدلنى خيرًا منهما ، وإن تكن الأخرى فوالله لا أحزن عليهما

قد كنت أشفق من دمعى على بصرى
فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

بكاء المتهجدين وسهرهم خوفاً من النار :

ومن المتهجدين من منعه خوف جهنم من النوم :

منهم شداد بن أوس وقد مضى ذكره ، وطاوس والربيع بن خيثم وعامر بن عبد الله والثورى ومالك بن دينار :

● كان صفوان بن محرز إذا جنّه الليل يخور كما يخور الثور ويقول منع خوف النار منى الرقاد .

---

(١) التخويف من النار ص ٢٠ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٨١ .
(٣) المدهش لابن الجوزى ص ٢٠٥ .

● وكان رجل من الموالى يقال له صهيب يسهر الليل ويبكى . فعوتب على ذلك ، وقالت له مولاته : أَفْسَدت على نفسك ، فقال : إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه وإذا ذكر النار طار نومه .

● قال ابن المبارك يصف انتظار المتهجدين وتأهبهم للانتقال وخوفهم :

مستوفدين على رحل كأنهم
ركب يريدون أن يمضوا وينتقلوا
عفّت جوارحهم عن كل فاحشة
فالصدق مذهبهم والخوف والوجل(١)

يقول ابن المبارك عن منع خوف جهنم نوم المتهجدين :

وما فرشهم إلا أيامن أزرهم ... وما وسدهم إلا ملاء وأذرعُ
وما ليلهم فيهن إلا تخوف ... وما نومهم إلا عشاش مروع
وألوانهم صفر كأن وجوههم ... عليها جساد وهى بالورس مشبع
نواحل قد أذرى بها الجهد والسرى ... إلى الله فى الظلماء والناس هجّعُ
ويبكون أحيانًا كأن عجيجهم ... إذا نوّم الناس الحنين المرجع
ومجلس ذكر فيهم قد شهدته ... وأعينهم من رهبة الله تدمع(٢)

رحمك الله يا ابن المبارك فهذا الكلام لا يخرج إلا من فمك الطاهر الذى أدمن التلاوة ، ومن روحك التى أقلقها الخوف من القيامة ، فجزاك الله خيراً عن نبيك .

(١) التيار الإسلامى فى شعر العصر العباسى ص ٤٩٣ .
(٢) التخويف من النار والتعريف بحال أهل البوار لابن رجب ص ٢٦ ، ٢٧ . الناشر مكتبة الإيمان ـ عابدين .

● عن القاسم بن محمد قال : كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيرًا ما كان يخطر ببالى فأقول فى نفسى : بأى شىء فُضِّل هذا الرجل علينا حتى اشتهر فى الناس هذه الشهرة ؟ إن كان يصلى إنا نصلى ، ولئن كان يصوم إنَّا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزو ، وإن كان يحج إنا لنحج ، قال : فكنا فى بعض مسيرنا فى طريق الشام ليلة نتعشى فى بيت إذ طفىء السراج فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج يستصبح فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع فقلت فى نفسى : بهذه الخشية فُضِّل هذا الرجل علينا ، ولعلّه حين فقد السراج ، فصار إلى الظلمة ذكر القيامة(١).

● وعوتب يزيد الرقاشى على كثرة بكائه وقيل له : لو كانت النار خُلِقَتْ لك ما زدت على هذا فقال : وهل خُلقت النار إلاّ لى ولأصحابى ولإخواننا من الجن والإنس ، أما تقرأ ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾(٢) ، أما تقرأ ﴿ **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران** ﴾(٣) ، فقرأ حتى بلغ ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ فجعل يجول فى الدار ويبكى(٤) .

● أما منصور بن المعتمر وهو سيد من سادات المتهجدين فإنه لما مات صاحت أمه : واقتيل جهنماه ما قتل ابنى إلا خوف جهنم(٥) .

● قال أبو عاصم العبّادانى عن عابد من بنى سعد : كان يصلى الليل والنهار لا يكاد يفتر ، فإذا كان السحر احتبى ، واستقبل البحر فجعل يبكى وينوح على

---

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ١٤٥ .
(٢) الرحمن آية رقم ٣١
(٣) الرحمن آية رقم ٣٥
(٤) التخويف من النار ص ٢٣ .
(٥) التخويف من النار ص ٣١ .

نفسه ، قال : فإذا أحس بإنسان أمسك ، قال : فخرجت ذات ليلة إلى الساحل فإذا أنا بصوته وإذا هو يبكى ويقول فى بكائه :

ألا يا عين ويحك أسعدينى   بطول الدّمع فى ظلم الليالى
لعلك فى القيامة أن تفوزى   بخير الدهر فى تلك العلالى[1]

● وقال عباد بن زياد يرثى إخوة له متعبدون :

فتية يعرف التخشع فيهم   كلهم أحكم القرآن غلاما
قد برى جلده التهجد حتى   عاد جلداً مصفرّاً وعظاما
تتجافى عن الفراش من الخو   ف إذا الجاهلون باتوا نياما
بأنين وعبرة ونحيب   ويظلون بالنهار صياما
يقرأون القرآن لا ريب فيه   ويبيتون سجداً وقياما[2]

● كان يحيى بن معاذ رحمه الله يقول فى مناجاته فى الليل : « اللهم إن خطيئتى تعذبنى ، وتوبتى تذوبنى فعيشتى طول دهرى بين تعذيب وتذويب »[3] .

● إلهى وسيدى مولاى :

سهر العيون لغير وجهك باطل   وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

● بكى أحد العباد من أهل البحرين فى جوف الليل وهو على ساحل البحر وقال : قرة عينى وسرور قلبى ، ما الذى أسقطنى من عينك يا مانح العصم ، ثم يبكى ويقول :

---

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٥٩ .
(٢) التخويف من النار ص ٢٨ .
(٣) تنبيه المغترين للشعرانى ص ١٠٦ .

« طوبى لقلوب ملأتها خشيتك ، واستولت عليها محبتك ، فمحبتك مانعة لها من كل لذة غير مناجاتك ، والإجتهاد فى خدمتك ، وخشيتك قاطعة لها عن كل معصية خوفاً لحلول سخطك ثم بكى وقال : يا إخوتاه ابكوا على خوف فوات الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة »(١) .

بكى الباكون للرحمن ليلاً وباتوا دمعهم لا يسأمونا
بقاع الأرض من شوق إليهم تحنّ متى عليها يسجدونا

- وكانت شعوانة تقول فى مناجاتها :

« إلهى ما أشوقنى إلى لقائك ، وأعظم جزائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهى إن كان دنا أجلى ، ولم يقرّبنى منك عملى ، فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ؟ وإن عدلت فمن أعدل منك هنالك ! إلهى قد جرتُ على نفسى فى النظر لها ، وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهى إنك لم تزل بى برًّا أيام حياتى ، فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ، ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه ، أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه ، إلهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ، ولم تولنى إلا الجميل فى حياتى ، إلهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى ، فإن محبتى لك قد أجارتنى ، فتول من أمرى ما أنت أهله ، وعُدْ بفضلك على من غرّه جهله ، إلهى لو أردت إهانتى لما هديتنى ، ولو أردت فضيحتى لم تسترنى ، فمتّعنى بما له هديتنى ، وأدم لى مابه سترتنى ... »(٢) .

واسمع يا أخى إلى مناجاة غريبة فى جوف الليل لأحد المتهجدين وهو أبو

---

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٧٣ .
(٢) عودة الحجاب القسم الثانى للشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل ص ٣٠١ .

محمد فتح بن محمد الموصلي : كان رحمه الله يجمع عياله فى ليالى الشتاء ويقول بكسائه عليهم ثم يقول : « اللهم أفقرتنى وأفقرت عيالى ، وجوّعتنى وجوّعت عيالى ، وأعريتنى وأعريت عيالى ، بأى وسيلة توسلتها إليك ، وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك فهل أنا منهم حتى أفرح ؟

ودخل ليلة إلى أهله وهو صائم فلم يجد عندهم شيئاً ولا ما يسرجون به فجلس يبكى من الفرح ويقول : إلهى مثلى يُترك بلا عشاء ولا سراج ، بأىّ يدٍ كانت منى ، فما زال يبكى إلى الصباح[1]

رحمك الله يا موصلى تدعو بهذا الدعاء الجميل ، أنت من قوم علموا أن لطف اللطيف لا ينفك عنه أبداً ، وأن الرحمن رحمان على الدوام فصار المنع عندهم عين العطاء ، ورضوا من مولاهم أن يكون جزاؤهم على الطاعة الابتلاء ، بل صار نعتهم الصبر عند السراء والشكر عند الضراء ، فربما كان الرخاء استدراجًا من الله عز وجل ولله در أبى تراب النخشبى :

لا تخدعن فللمحب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائلُ
منها تنعمه بمر بلائه وسروره فى كل ما هو فاعلُ
فالمنع منه عطية مقبولة والفقر إكرام وبر عاجل[2]

معشر المتوجهين إليه ما ضرّكم ما فاتكم من الدنيا إذا كان الله لكم حظاً . وما ضرّكم من عاداكم إذا كان الله لكم سلماً : ولله در القائل :

هنيئًا لمن أضحى وأنت حبيبه ولو أن لوعات الغرام تذيبه
وطوبى لصبٍّ أنت ساكن سرِّه ولو بان عنه إلفه وقريبه

(١) استنشاق نسيم الأنس ص ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ص ٧٦ .

وما ضرّ صبًا أن يبيت وماله نصيب من الدنيا وأنت نصيبه
ومن تك راض عنه فى طىّ غيبه فما ضرّه فى الناس من يستغيبه
فيا علة فى الصدر أنت شفاؤها ويا مرضًا فى القلب أنت طبيبه
عُبيدك فى باب الرجا متضرع إذا لم تجبه أنت من ذا يجيبه
بعيد عن الأوطان يبكى بذلة وهل ذاق طعم الذل إلا غريبه
تصدّق على من ضاع منه زمانه ولم يدر حتى لاح منه مشيبه
غدا خاسرًا فالعار يكفيه والعنا وقد آن من ضوء النهار مغيبه[(١)]

وتتعدد ألوان مناجاتهم :

● فهذا عابد آخر « عتبة الغلام » إذا جنّه الليل لبس المسح ، وغلّ نفسه وناجي مولاه قائلاً : احشرنى من حواصل الطيور . فاستجاب الله دعاءه ، ولقى ربه شهيدًا وأكلت الطيور لحمه[(٢)] .

● أما أبو صخر يزيد بن أبى سمية الأيلى : فكان يصلى ليله ويبكى وكانت معه فى الدار امرأة يهودية ساكنة فكانت تبكى رحمة له ، فقال ليلة فى دعائه : « اللهم إن هذه اليهودية قد بكت رحمة لى ودينها مخالف لدينى ، فأنت أولى برحمتى[(٣)] .

● وكان أحد العباد يناجى مولاه فى جوف الليل ويقول : « يا سيدى وأملى ، ومؤملى ومَنْ به تمّ عملى ، أعوذ بك من بدن لا ينتصب بين يديك ، وأعوذ بك من قلب لا يشتاق إليك وأعوذ بك من دعاء لا يصل إليك ، وأعوذ بك من عينٍ لا تبكى عليك » .

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص ١٠٤ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٣) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٣٥ .

وآخر يدعو ويناجي مولاه فيقول : « سبحان من أخرج قلوب المشتاقين فى رياض الطاعة بين يديه ، سبحان من أوصل الفهم إلى عقول ذوى البصائر فهى لا تعتمد إلا عليه ، سبحان مَنْ أورد حياض المودّة نفوس أهل المحبة فهى لا تحنّ إلا إليه » ثم يقول : « إن لله عز وجل عبادًا قدح فى قلوبهم زند الشغف ونار الومق ، فأرواحهم لشدة الاشتياق تسرح فى الملكوت ، وتنظر إلى ما ذُخر لها فى حجب الجبروت »[1] .

● بربك يا أخى خبّرنى عن هذه المناجاة ألا تهطل المدامع وتهيج بلابل الشوق إلى المولى عز وجل

أبدا نفوس الطالبين إلى رياضكم تحنّ
وكذا القلوب بذكركم بعد المخافة تطمئن
حنّت بحبكم ومَنْ ناجى الحبيب ولا يحن ؟[2]

● وعابد آخر يناجي فى جوف الليل بصوت محزون :

« يا منْ آنسنى بقربه ، وأوحشنى من خلقه ، وكان عند مسرّتى ارحم اليوم عبرتى[3] .

● وآخر يناجي فيقول : « شهد لك قلبى فى النوازل بمعرفة الفضل لك ، وكيف لا يشهد لك قلبى بذلك ، ولا يحسن بقلبى أن يألف غيرك ، هيهات ، لقد خاب لديك المقصّرون عنك »[3] .

● فانظر يا أخى إلى هذه الأنفس الطاهرة ، صافوْا مولاهم بالعقول ، ودققوا له الفطن ، فسقاهم من كأس حبه شربة فظلوا فى عطشهم أروياء ، وفى ريّهم عطاشاً .

---

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٤١ .
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٤١٩ .
(٣) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٤٧ .

أمّا أهل زماننا فقد توعرت الطريق ، وقلّ السالكون وهُجرت الأعمالُ ، وقَلّ الراغبون فيها ، وقلّ الحق ودرس هذا الأمر فلا نراه إلا فى لسان كل بطّال ينطق بالحكمة ويفارق الأعمال ، قد افترش الرخصة وتمهد للتأويل ، واعتل بزلل العاصين ، وسكنت القلوب إلى روح الدنيا وانقطعت عن روح ملكوت السموات وإنا لله وإنا إليه راجعون .

• وعابد آخر يبكى بالليل ويقول فى بكائه :

« أتُرى بكائى نافعى عندك ، ومنقذ رقبتى من حكمك ، أتراك آخذاً من نفسى بحقك وموبّخها على رؤوس الأشهاد بما ضيعتْ من أمرك . آوّه لكشف سترك عنى ، آوه لوقوفى بين يديك »[1] .

• وآخر يناجى ويبكى على الساحل بالليل : « جرمى عظيم وعفوك كثير فاجمع بين جرمى وعفوك ياكريم »[2] .

• وآخر يقول فى مناجاته : « يا سيدى بك تفرد المتفردون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك اصطفقت الأمواج المتلاطمات أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوّار ، والبحر الزخّار ، والقمر النوّار ، وكل شىء عندك بمقدار

يا مؤنس الأبرار فى خلواتهم يا خير من حطّتْ به النزّال[3]

وآخر يقول :

ألوذ بباب من أدعوه فردًا وآمل أن أُقرَّب من حبيبى
إذا نامت عيون الناس طرًا قرعت الباب بالقلب الكئيب

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٦٥ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٧٠ .
(٣) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٣٧٤ .

وآخر يناجى فيقول :

« عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبهم بذكر سواك .

• قال ابن قتيبة : بلغنى عن الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبى العاتكة قال :

كان داود النبى عليه السلام يقول فى مناجاته :

« سبحانك إلهى ، إذا ذكرت خطيئتى ضاقت علىّ الأرضُ برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلىّ روحى ، سبحانك إلهى أتيتُ أطباء عبادك ليداووا لى خطيئتى فكلهم عليك يدلّنى »[1] .

• « سبحانك .. ما أضيق الطريق على مَنْ لم تكن دليله ، سبحانك .. ما أوحش الطريق على منْ لم تكن أنيسه » .

سبحانك سبحانك ، لك الجمال والجلال ولك الكمال .. سبحانك أنت أنت سبحانك قدستك ألسن التماديح وأفواه التسابيح .

• كان على بن سهل المدائنى رحمه الله يقوم إذا هدأت العيون فينادى بصوت له محزون « يا من اشتغلت قلوب خلقه عنه بما يعقبهم عند لقائه ندمًا ، ويا مَنْ سَهَتْ قلوب عباده عن الاشتياق إليه إذ كانت أياديه إليهم قبل معرفتهم به » ثم يبكى حتى تبكى لبكائه جيرته ، ثم ينادى : « ليت شعرى سيدى ، إلى متى تحبسى ؟ ابعثنى سيدى إلى حسن وعدك ، وأنت العليم أن الشوق قد برّح بى ، وطال علىّ الانتظار » ثم يخر مغشيًا عليه فلا يزال كذلك حتى يحركه لصلاة الصبح[2] .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى .

(٢) الطريق إلى الله « الصدق » لأبى سعيد الخزاز تحقيق دكتور عبد الحليم محمود ص ١١٨ الناشر دار الإنسان .

• وكان الحارث بن عمير رحمه الله يقول إذا أصبح : « أصبحت ونفسى وقلبى مصر على حبك سيدى ، ومشتاق إلى لقائك فعجّل بذلك قبل أن يأتينى سواد الليل » ، فإذا أمسى قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذه الحال ستين سنة [1].

• وكان أحد العبّاد يقوم الليل حتى إذا برق عمود الصبح وثب قائماً على قدميه ونادى بأعلى صوته : ذهب الليل بما فيه ، وأقبل النهار بدواهيه ، ولم أقض من خدمتك وطراً ، آخر خسر من أتعب لغيرك بدنه ، وألجأ إلى سواك همه » ثم أنشد يقول :

مَنْ عامَلَ الله بتقواه — وكان فى الخلوة يرعاه
سقاه كأساً من صفى حبه — يسلبه لذة دنياه
فأبعد الخلق وأقصاهم — وانفرد العبد بمولاه [2]

• وانظر هاهو أبو سليمان الدارى تسمع قوم عليه ليلاً فسمعوه يقول :

« إن طالبتنى بسريرتى طالبتك بتوحيدك ، وإن طالبتنى بذنوبى طالبتك بكرمك ، وإن جعلتنى من أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إياك » [3].

قال ذو النون فى مناجاته لربه : ـ

« اللهم متّع أبصارنا بالجولان فى جلالك ، وسهِّرنا عما نامت عنه عيون الغافلين ، واجعل قلوبنا معقودة بسلاسل النور ، وأطلقنا من الأسر لنجول فى

---

(١) الطريق إلى الله ص ١١٩ .
(٢) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .
(٣) الحلية جـ ٩ ص ٣٥٥ .

خدمتك مع الجوّالين »[1] .

لله در القائل :

قوم تخلّلهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا به عمّنْ سواه له يا حسن رؤيتهم فى حُسن ما تاهوا

● وكان خليفة العبدى : يقوم إذا هدأت العيون فيقول : « اللهم إليك قمت أبتغى ما عندك من الخيرات » ثم يعمد إلى محرابه فلا يزال يصلى حتى يطلع الفجر ، وكان يدعو فى السحر يقول :

« هب لى إنابة إخبات وإخبات منيب ، وزيّنى فى خلقك بطاعتك ، وحسّنى لديك بحسن خدمتك ، وأكرمنى إذا وفد إليك المتقون ، فأنت خير مسئول وخير معبود وخير مشكور وخير محمود » . وكان إذا دعا فى السحر يقول : « قام البطّالون وقمت معهم ، قمنا إليك ونحن متعرضون لجودك فكم من ذى جرم قد صفحت له عن جرمه ، وكم من ذى كرب عظيم قد فرجت له عن كربه ، وكم من ذى ضر كبير قد كشفت له عن ضرّه ، فبعزتك ما دعانا إلى مسألتك بعد ما انطوينا عليه من معصيتك إلا الذى عرّفتنا من جودك وكرمك ، فأنت المؤمل لكل خير ، والمرجوّ عند كل نائبة »[2] .

ومن مناجاتهم : « سيدى قصدَك عبدٌ روحه لديك ، وقياده بيديك ، واشتياقه إليك ، وحسراته عليك ، ليله أرق ، ونهاره قلق ، وأحشاؤه تحترق ، ودموعه تستبق ، شوقاً إلى رؤيتك ، وحنيناً إلى لقائك ، ليس له راحة دونك ، ولا أمل غيرك » .

● ويقول يحيى بن معاذ « أحلى العطايا فى قلبى رجاؤك ، وأعذب الكلام على

---

(١) الحلية ٩/ ٣٥٨ .

(٢) الحلية ٦/٣٠٣ ـ ٣٠٤

لسانى ثناؤك ، وأحب الساعات إلىّ ساعة يكون فيها لقاؤك » .

● ويقول آخر :

ارحم حشاشة نفس فيك قد ذهبت قبل الممات فهذا آخر الرمق
ولو مضى الكل منى لم يكن عجباً وإنما عجبى للبعض كيف بق

ويقول آخر :

ألا خلوة أشكو إليك صبابة لها بين جلدى والعظام دبيبُ

ويقول آخر :

زمانى كله بهم سرور وهم عيشى وهم سمعى وهم بصرى

ويقول آخر :

فروحى وريحانى إذا كنت حاضرًا وإن غبت فالدنيا علىّ محابس
إذا لم أنافس فى رضاك ولم أغر لدينك فيمن ليت شعرى أنافس ؟

● ويقول آخر :

فكيف يصنع من أقصاه مالكه فليس ينفعه طب الأطباء
مَنْ غصّ داوى بشرب الماء غصّته فكيف يصنع مَنْ قد غصَّ بالماء ؟

وكان أحد الصالحين يناجى ربه فى سجوده فى جوف الليل فيقول :

« إلهى ، أغلقت الملوك أبوابها ، وبابك مفتوح للسائلين ، إلهى ، غارت النجوم ، ونامت العيون ، وأنت الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، إلهى فُرِشت الفُرُش ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وأنت حبيب المتهجدين وأنيس المستوحشين .

● إلهى إن طردتنى عن بابك فإلى باب من ألتجى ، وإنْ قطعتنى عن خدمتك فخدمة من أرتجى .

● إلهى إن عذّبتنى فإنى مستحق العذاب والنِّقَم ، وإن عفوت عنى فأنت أهل الجود والكرم ، يا سيدى لك أخلص العارفون ، وبفضلك نجا الصالحون ، وبرحمتك أناب المقصرون ، يا جميل العفو أذقنى برد عفوك وحلاوة مغفرتك ، وإن لم أكن أهلاً لذلك فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة » .

ولله در أحمد بن زيد البحرانى حيث يقول :

محب نفى ما التذّ من غمضه الفكرُ ... فأعقبه ضرًا وأنهكه الضرُّ
وبات يراعى أنجمًا بعد أنجم ... ويرعد من خوف إلى أن بدا الفجر
ويخدم مولاه بألطف خدمة ... ويسعده فى حسن خدمته الصبر
به وبمن ساواه فى الزهد والتقى ... إذا الجدب عم الأرض يستنزل القطر
محب خلا بالحب خلوة واجد ... خلا بحبيب ، والظلام له ستر
يقول بذلت الحب يا منتهى المنى ... ويا نور قلبى أنت لى سيدى ذخر
فلا تخزنى يارب وارحم تضرعى ... فقد وعظيم العفو أثقلنى الوزر
وقد خفت من يوم المعاد مخافة ... تيقنت أنى ليس لى فيهما عذر
بفضلك زدنى منك قرباً وأدننى ... إليك دنوًا لا يغيّره الدهر
شفائى مقامى فى الهوى وهو قاتلى ... وبين سقامى والشفا ينفد العمر
وفى كبدى مما أقاسى من الهوى ... ومن زفرات الحب يا واحدى جمر
غزا الحب قلبى قاصدًا بجيوشه ... ليأسره قسرًا فأذهله الأسر
وحقك لا أنساك مادمت باقيًا ... وهل يتسلى من محبته فخر[1]

المحب إن كتم حاله نطق به دمعه

ظفرتم بكتمان اللسان فمَنْ لكم ... بكتمان عين دمعها الدهر ينزف[2]

(١) استنشاق نسيم الأنس ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ص ١٠٨ .

معاتبـــة نفس ومناجـــاة متهجـــد

هذى مناجاة متهجد .. نفثات صدر وأشجان قلب يمّم وجهه شطر الدار الآخرة مستراح العابدين يبثها فى خشوع وصدق تابعى جليل ، من القرون الخيرية ، من تلامذة الصحابة ، تربى وصُنع على أعينهم .. شرب من سلسبيل القرآن والسنة وكحّل أجفان قلبه بهما . فانظر إليه كيف يستمطر الدمع حين يقول فى مناجاته ، يقول عون بن عبد الله بن عتبة :

« ويحى بأى شىء لم أعصى ربى

ويحى إنما عصيته بنعمته عندى

ويحى من خطيئةٍ ذهبت شهوتُها وبقيت تبعتُها عندى فى كتاب كتبه كُتّابٌ لم يغيبوا عنى .

واسوأتاه ، لم أستحيهم ولم أراقب ربى ، ويحى نسيت مالم ينسوا منى . ويحى غفلت ولم يغفلوا عنى ، لم أُستحيهم ولم أراقب .

واسوأتاه ! ويحى ! حفظوا ما ضيّعتُ منى ، ويحى ! طاوعت نفسى وهى لا تطاوعنى ، ويحى طاوعتها فيما يضرها ويضرنى .

ويحها ألا تطاوعنى فيما ينفعها وينفعنى .. أريد إصلاحها وتريد أن تفسدنى ، ويحها إنى لأنصفها وما تنصفنى ، أدعوها لأرشدها وتدعونى لتغوينى ، ويحها إنها لعدو لو أنزلتها تلك المنزلة منى .

ويحها تريد اليوم أن تُردِينى ، وغدا تخاصمنى .

ربٍّ لا تسلطها على ذلك منى ، ربٍّ إنّ نفسى لم ترحمنى فارحمنى ، ربٍّ إنى أعذرها ولا عذرتنى ، إنه إن يلك خيرًا أخذلها وتخذلنى ، وإن يلك شرًا أحبها وتحبنى ، رب فعافنى منها وعافها منى ، حتى لا أظلمها وتظلمنى ، وأصلحنى لها وأصلحها لى ، فلا أهلكها وتهلكنى ، ولا تكلنى إليها ولا تكلها إلىّ .

ويحى ! كيف أفرّ من الموت وقد وكّل بى ، ويحى ! كيف أنساه ولا ينسانى ؟

ويحى إنه يقص أثرى فإن فررت لقينى ، وإن أقمت أدركنى .

ويحى هل عسى أن يكون قد أظلنى فمسّانى وصبّحنى ، أو طرقنى فبغتنى .

ويحى أزعم أن خطيئتى قد أقرحت قلبى ولا يتجافى جنبى ، ولا تدمع عينى ولا تسهر لى [ولا يسهر ليلى] . ويحى كيف أنام على مثلها ليلى .

ويحى هل ينام على مثلها مثلى . ويحى ! لقد خشيت ألا يكون هذا الصدق منى ؟ بل ويلى إن لم يرحمنى ربى . .

ويحى كيف لا توهن قوتى ولا تعطش هامتى .. بل ويلى إن لم يرحمنى ربى .

ويحى كيف لا أنشط فيما يطفيها عنى .. بل ويلى إن لم يرحمنى ربى .

ويحى كيف لا يُذهبُ ذكرُ خطيئتى كسلى ، ولا يبعثنى إلى ما يذهبها عنى .. بل ويلى إن لم يرحمنى ربى .

ويحى لا تناهى الأولى من خطيئتى عن الآخرة ، ولا تذكرنى الآخرة من خطيئتى بسوء ما ركبت من الأولى فويلى ثم ويلى إن لم يُتم عفو ربى ..

ويحى لقد كان لى فيما استوعبت من لسانى وسمعى وقلبى وبصرى اشتغال .. فويل لى إن لم يرحمنى ربى .

ويحى إن حجبت يوم القيامة عن ربى فلم يزكنى ولم ينظر إلىّ ولم يكلمنى ، فأعوذ بنور وجهه من خطيئتى ، وأعوذ به أن أُعطى كتابى بشمالى أو وراء ظهرى فيسود به وجهى .. وتَزْرَقُ به مع العمى عينى .. بل ويلى إن لم يرحمنى ربى .

ويحى ! بأى شىء أستقبل ربى ؟

بلسانى أم بيدى أم بسمعى أم بقلبى أم ببصرى ، فنى كل هذا له الحجّة والطِّلْبةُ عندى ، فويل لى إن لم يرحمنى ربى .

كيف لا يشغلنى ذكر خطيئتى عما لا يعنينى ؟

ويحك يا نفس مالك تنسين ما لا يُنسى ؟

وقد أوتيت مالا يؤتى ، وكل ذلك عند ربى يُحصى ، فى كتاب لا يبيد ولا يَبْلى .

ويحك لا تخافين أن تُجْزَىْ فيمنْ يُجْزى ، يوم تجزى كل نفس بما تسعى . وقد آثرت ما يفنى على ما يبقى .

يا نفس ويحك ألا تستفيقين مما أنت فيه : إن سقمت تندمين ، وإن صححت تأثمين ، مالك إن افتقرت تحزنين ، وإن استغنيت تُفتنين ، مالك إن نشطت تزهدين فلم إن دُعيت تكسلين ؟ أراك ترغبين قبل أن تنصبى ، فلم لا تنصبين فيما ترغبين .

يا نفس ويحك ! لِمَ تُخالفين ؟ تقولين فى الدنيا قول الزاهدين وتعملين فيها عمل الراغبين ، ويحك لم تكرهين الموت .

يا نفس ويحك ! أترجين أن تَرْضَىْ ولا تُراضين ، وتُجَانبين وتَعْصين .

مالك إن سألت تُكثرين ، فلم إن أنفقت تقترين .

أتريدين الحياة ، تعظمين فى الرهبة حين تسألين ، وتقصرين فى الرغبة حين تعملين ، تريدين الآخرة بغير عمل ، وتُؤخرين التوبة لطول الأمل .

لا تكونى كمن يقال هو فى القول مُدِلّ ويستصعب عليه الفعل .

ويح لنا ما أغرّنا ، ويح لنا ما أغفلنا ، ويح لنا ما أجهلنا ، ويح لنا لأى شىء خلقنا ، أللجنة أم للنار ، ويح لنا أى خطر خطرنا ، ويح لنا من أعمال قد أخطرتنا ، ويح لنا ممّا يراد بنا ، ويح لنا كأنما يعنى غيرنا ، ويح لنا إن ختم على أفواهنا ، وتكلمت أيدينا ، وشهدت أرجلنا ، ويح لنا حين تفتش سرائرنا ، ويح لنا حين تشهد أجسادنا ، ويح لنا مما قصرنا ، لا براءة لنا ولا عذر عندنا ، ويح لنا ماأطول أملنا ، ويح لنا حيث نمضى إلى خالقنا ، ويح لنا ولنا الويل الطويل إن لم يرحمنا ربنا فارحمنا ياربنا .

رب ما أحكمك وأمجدك وأجودك وأرأفك وأرحمك وأعدلك وأقربك وأقدرك وأقهرك وأوسعك وأقضاك وأبينك وأنورك وألطفك وأخبرك وأعلمك

وأشكرك وأحلمك وأحكمك وأعطفك وأكرمك .

رب ما أرفع حجتك وأكثر مدحتك ، رب ما أبين كتابك وأشد عقابك ، رب ما أكرم مآبك وأحسن ثوابك ، رب ما أجزل عطاؤك وأجل ثناؤك ، رب ما أحسن بلاءك وأسبغ نعماءك ، رب ما أعلى مكانك وأعظم سلطانك ، رب ما أمتن كيدك وما أغلب مكرك ، رب ما أعز ملكك ، وأتم أمرك ، رب ما أعظم عرشك وأشد بطشك ، رب ما أوسع كربيك وأهدى مهديك ، رب ما أوسع رحمتك وأعرض جنتك ، رب ما أعز نصرك وأقرب فتحك ، رب ما أعمر بلادك وأكثر عبادك ، رب ما أوسع رزقك وأزيد شكرك ، رب ما أسرع فرجك وأحكم صنعك ، رب ما ألطف خبرك وأقوى أمرك ، رب ما أنور عفوك وأجل ذكرك ، رب ما أعدل حكمك ، وأصدق قولك ، رب ما أوفى عهدك وأنجز وعدك ، رب ما أحضر نفعك وأتقن صنعك .

ويحى ! كيف أغفل ولا يغفل عنى ، أم كيف تهنئنى معيشتى واليوم الثقيل ورائى ؟ أم كيف لا يطول حزنى ولا أدرى ما يُفعل بى ، أم كيف تهنئنى الحياة ولا أدرى ما أجلى أم كيف تعظم فيها رغبتى والقليل منها يكفينى ، أم كيف آمن ولا يدوم فيها حالى ... أم كيف يشتد حبى لدار ليست بدارى ؟ أم كيف أجمع لها وفى غيرها قرارى ؟

أم كيف يشتد عليها حرصى ولا ينفعنى ما تركت فيها بعدي ؟
أم كيف أوثرها وقد أضرّت بمن آثرها قبلى .

أم كيف لا أبادر بعملى قبل أن يغلق باب توبتى .. أم كيف يشتد إعجابى بما يزايلنى وينقطع عنى .

أم كيف أغفل عن أمر حسابى وقد أظلنى واقترب منى ؟ أم كيف أجعل شغلى فيما قد تُكفِّل به لى .

أم كيف أعاود ذنوبى وأنا معروض على عملى ؟ أم كيف لا أعمل بطاعة ربى وفيها المنجاة مما أحذر على نفسى .

أم كيف لا يكثر بكائى ولا أدرى ما يراد بى ؟ أم كيف تقرعينى مع ذكر ما سلف منى ؟ أم كيف أعرّض نفسى لما لا يقوى له هوائى ؟

أم كيف لا يشتد هولى مما يشتد منه جزعى ؟ أم كيف تطيب نفسى مع ذكر ما هو أمامى ؟

أم كيف يطول أملى والموت فى أثرى ؟ أم كيف لا أراقب ربى وقد أحسن طلبى ؟ ويحى فهل ضرّت غفلتى أحدًا سوائى .

أم هل يعمل لى غيرى إن ضيّعت حظى .. ؟ أم هل يكون عملى إلا لنفسى ؟ فَلِمَ أدّخر عن نفسى مايكون نفعه لى ؟.

ويحى كأنه قد تَصرّم أجلى ثم أعاد ربى خلقى كما بدأنى ؟ ثم أوقفنى وسألنى وسأل عنى وهو أعلم بى .. ثم أشهدت الأمر الذى أذهلنى عن أحبابى وأهلى ، وشُغلت بنفسى عن غيرى وبُدِّلت السموات والأرض وكانتا تطيعان وكنت أعصى .

وسُيِّرت الجبال وليس لها مثل خطيئتى ... وجمع الشمس والقمر وليس عليهما مثل حسابى . وانكدرت النجوم وليست تطلب بما عندى .. وحشرت الوحوش ولم تعمل بمثل عملى وشاب الوليد وهو أقل ذنبًا منى ..

ويحى ما أشد حالى وأعظم خطرى فاغفر لى.

واجعل طاعتك همى ، وقوّ عليها جسدى ، وسخّ نفسى عن الدنيا ، واشغلنى بما ينفعنى وبارك لى فى قواها حتى ينقضى منى حالى .. وامنن علىّ وارحمنى حين تُعيد بعد اللقا خلقى ومن سوء الحساب فعافنى يوم تبعثنى فتحاسبنى ، ولا تعرض عنى يوم تعرضنى بما سلف من ظلمى وجرمى . وآمنّى يوم الفزع الأكبر يوم لا تهمنى إلا نفسى ، وارزقنى نفع عمل يوم لا ينفعنى عمل غيرى .

إلهى أنت الذى خلقتنى ، وفى الرحم صورتنى ، ومن أصلاب المشركين نقلتنى ، قرنًا فقرنًا حتى أخرجتنى فى الأمة المرحومة فارحمنى إلهى . فكما مننت علىَّ بالإسلام فامنن علىّ بطاعتك وبترك معاصيك أبدًا ما أبقيتنى ، ولا تفضحنى بسرائرى، ولا تخذلنى بكثرة فضائحى .

سبحانك خالقى .. أنا الذى لم أزل لك عاصيًا فمنْ أجل خطيئتى لا تقر عينى ، وهلكت إن لم تعف عنى . سبحانك خالقى بأى وجه ألقاك ، وبأى قدم أقف بين يديك ، وبأى لسان أناطقك ، وبأى عين أنظر إليك ؟ وأنت قد علمت سرائر أمرى ، وكيف أعتذر إليك إذا ختمت على لسانى ونطقت جوارحى بكل الذى قد كان منى .

سبحانك خالقى .. فأنا تائب إليك .. فاقبل توبتى واستجب دعائى وارحم شبابى ، وأقلنى عثرتى ، وارحم طول عبرتى ، ولا تفضحنى بالذى قد كان منى .

سبحانك خالقى .. أنت غياث المستغيثين ، وقرة أعين العابدين ، وحبيب قلوب الزاهدين ، فإليك مستغاثى ومنقطعى ، فارحم شبابى ، واقبل توبتى ، واستجب دعوتى ، ولا تخذلنى بالمعاصى التى كانت منى ، إلهى علمتنى كتابك الذى أنزلته على رسولكْ محمد ﷺ ثم وقعت على معاصيك وأنت ترانى ، فمن أشقى منى إذا عصيتك وأنت ترانى ، وفى كتابك المنزل قد نهيتنى ، إلهى أنا إنْ ذكرت ذنوبى ومعاصيتى لم تقر عينى للذى كان منى فأنا تائب إليك فاقبل ذلك منى ، ولا تجعلنى لنار جهنم وقودًا بعد توحيدى وإيمانى بك فاغفر لى ولوالدى ولجميع المسلمين برحمتك آمين يارب العالمين[1] .

---

(١) الحلية .

قالوا عن
البكاء والمناجاة بالليل

● ابك على ظلام قلبك يضيء .

● ابسط فى الدجى يد الطلب ، فأطيب ما أكل الرجل من كسب يده ، وقل بلسان التملق

أحبابنا أنا ذاكُم العبد الذى راعيتموه ناشئاً ووليدا
حالت به الأحوال بعد فراقكم فرمى بأسرته وجاء فريدا

● إذا جلست فى ظلام الليل بين يدى سيدك ، فاستعمل أخلاق الأطفال ، فإن الطفل إذا طلب من أبيه شيئًا فلم يعطه بكى عليه .

● يا من نزلت به بليّة الطرد تروّح إلى حديث المناجاة وإن لم تسمع منك ، وابعث رسائل الأحزان مع رياح الأسحار ولو لم تصل .

● أدلج القوم طول الليل فى السرى ، وخافوا عوز الماء فتمّموا المزاد بالبكا

سلوا غير طرفى إن سألتم عن الكرى
فما لجفون العاشقين منام

● كان فتحى الموصلى يبكى الدموع ثم يبكى الدم ، فقيل له على ماذا بكيت الدم ؟ قال : « خوفاً على الدموع أن تكون ما صَحّت لى[1] » .

والعين لها دم ودمع سح ذا يكتب شجوه وهذا يمحو

● لا بد والله من قلق وحرقة ، إما فى زاوية التعبد أوْ فى هاوية الطرد ، فإمّا أن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب ، وإلاّ فنار جهنم أشد حرّا

---

(١) المدهش لابن الجوزى ص ٢٣٨ .

شجاك الفراق فما تصنع أتصبر للبين أم تجزعُ
إذا كنت تبكى وهم جيرة فكيف تكون إذا ودّعوا ؟

● كان أحد العباد يصيح فى جوف الليل : « قرة عينى وسرور قلبى ما الذى أسقطنى من عينك ، أقلت هذا فراق بينى وبينك » .

ما فى الصحاب أخو وجد تطارحه حديث نجد ولا صبّ تجاريه
إليك عن كل قلب فى أماكنه ساهٍ ، وعن كل دمع فى مآقيه

● كان سرى يدافع أول الليل ، فإذا جن أخذ فى البكاء إلى السحر .

● قال الإمام أحمد : « لقد رأيت قومًا صالحين . رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جبة من لبود قد أتت عليها سنون ، رأيت أبا داود الحفرى وعليه جبّة مخرقة قد خرج منها القطن وهو يصلى فيترجح من الجوع . ورأيت أيوب النجار وقد خرج من كل ما يملكه ، وكان فى المسجد شاب مصفر يقال له العوفى يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكى[1] :

قد أكنت أطوى على الوجد الضلوع ولا أبدى الهوى وأسوم القلب كتمانا
فخاننى الصبر إذ ناديته ووفتْ لى الشئون[2] فعاد السر إعلانا
أُكَتِّمُ الوجد والعينان تظهره للحب أعظم مما رمته شانا

● قال أبو عمران الجونى : أرتنى أمى موضعًا من الدار قد انحفر فقالت : هذا موضع دموع أبيك .

● المتهجدون على شواطىء أنهار الدمع نزول ، فلو سِرْت عن هواكَ خطوات لاحت لك الخيام .

(١) المدهش لابن الجوزى ص ٣١٢ .

وصلوا إلى مولاهم وبقينا وتنعموا بوصاله وشقينا
فتجمعوا أهل القطيعة والجفا نبكي شهورًا قد مضت وسنينا
كُثُرٌ فيكَ اللُّوَّمُ فأين سمعى منهمُ
قالوا سهرت والعيون الساهرات نُوَّمُ
وليس من جسمك إلا جلدةٌ وأعظمُ

وما عليهم سهرى ولا رقادى لهمُ
خُذْ أنت فى شأنك يا دمعى وخلٍّ عنْهُمُ

• كان فى خد عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء ، وكان فى وجه ابن عباس كالشراكَيْن الباليَيْنِ من الدمع :

أَلا مَنْ لعينٍ من بكاها على الحمى تجف ضروع المُزْن وهى حلوبُ
وماكنتُ أدرى أن عيناً ركية ولا أن ماء الماقيين شروب

• كان عطاء يبكى فى غرفة له حتى تجرى دموعه فى الميزاب ، فقطرت يومًا إلى الطريق على بعض المارّين فصاح : يا أهل الدار أماؤكم طاهر ؟ فصاح عطاء : اغسله فإنه دمع من عصى الله .

وقالوا لعطاء السلمى : ما تشتهى ؟ قال : أشتهى أن أبكى حتى لا أقدر أن أبكى .

• قالوا لثابت البنانى : عالجْ عينك ولا تبكي . فقال أى خير فى عين لا تبكى :

بقلبى منهم علق ودمع فيهم علق
ولى من حبهم حرق لها الأحشاء تحترق
وما تركوا سوى رمق فليتهم له رمقوا

● يا عجباً من خلّى يعذل ذا شجى ، ويحك خل شانه وشانه :

فيا حبهم زدنى جوى كل ليلة   ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

● سهر القوم يقع ضرورة ، لأن القلق مانع من النوم ، وليس لهم فى تلك الشدائد إلاّ جريان الدموع :

بلانى الحب فـيك بما بلانى   فشأنى أن تفيض غروب شانى
أبيت الليل مرتفقًا أناجى   بصدق الوجد كاذبة الأمانى
فتشهد لى على الأرق الثريا   ويعلم ما أجنّ الفرقدان
فيا ولع العواذلِ خلّ عنى   ويا كف الغرام خذى عنانى

● إن الذنب لا يغسل إلا بدمع ، وإنه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبى سهل الصعلوكى يظهر تأنيبه لنفسه :

انام على سهو وتبكى الحمائم   وليس لها جرم ومنى الجرائم
كذبت لعمرو الله لو كنت عاقلاً   لما سبقتنى بالبكاء الحمائم[1]

● كيف لا تذهب العيون البكاء ؟ وما تدرى ما قدْ أعدّ لها :

أحليفَ النَّوْمِ أَقِلَّ اللَوْمَ   فعندى اليوم بهم شُغْلُ

● لله در قوم أقلقهم الخوف والفَرَق ، أطافت بقلوبهم الحرق ، يا نورهم إذا جنّ الغسق ، يا حسن دمعهم محدقاً بالحدق ، كتبت عذرها فى الخدّ لا فى الورق ، ذابت أجسامهم فلم يبق إلا رمق .

---

(١) الرقائق لمحمد أحمد الراشد نقلا عن طبقات الشافعية ١٧١/٣ .

لو رأيتهم يتشبثون بذيل الظلام ويأنسون بنوح الحمام ، وغاية لذاتهم الخلوات:

حمام الأراك ألا فاخبرينا   بِمَنْ تهتفين ومن تندبينا
فقد سُقتِ ويحك نوح القلوب   وأذريت ويحك دمعًا معينا
تعالَ نقم مأتمًا للفراق   ونندب إخواننا الظاعنينا
ونسعِدْك بالنوح كى تسعدى   كذاك الحزينُ يواسى الحزينا

نعم يا أخى :

وذو الشوق القديم وإن تعزّى   مشوق حين يلقى العاشقينا

نعم :

كلٌّ كَنَى عن شوقه بلغاته   ولربما أبكى الفصيحَ الأعجمُ

● كان محمد بن واسع إذا جنّ عليه الليل يبكى ويقول فى بكائه « ويلى من ذنوب قد أحصيت ، ومنْ صحيفة قد مُلئت ، وربى قد علم ذلك ولم يخف عليه من ذلك شىء : [1]

مَنْ كان يخشى الله جل جلاله   فليكثر العبرات فى الخلوات
فلعلّه بعد التذكر والبكا   بدلت له العبرات بالحسنات
وتخفف الأوزار عن منشوره   يوم الحساب وموقف الحسرات [2]

● جالس البكائين يتعدّ إليك حزنهم . يا مَنْ يشاهد ما يجرى على الخائفين ولا يتزعج ، أقل الأقسام أن يبكى رحمة لهم .

---

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزى ص ١٧٥ تحقيق د . السيد الجميلى طبع دار الكتاب العربى .

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين ص ١١٧ .

لا راحة للمحب فى الدنيا : إن أحسّ الحجاب بكى على البعد ، وإن فتح له باب القرب خاف الطرد:

فيبكى إن نأوا شوقاً إليهم ويبكى إن دنَوْا خوف الفراق

● كم بيننا وبين الصالحين ، لا نحنُ إليهم ، ولا هُمْ إلينا إلاّ إن كانت الثريا بالأيدى تُرام .. إلى ليلنا ونومنا يشكو ليلهم عتاباً على تقصيرنا وجدهم.

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر النوم عندنا
وذاك لأنّ النوم يغشى عيونهم سريعًا ولا يغشى لنا النوم أعينا

● كان مالك بن دينار قد اسوّد طريق الدمع فى خده:

ومَنْ لبّه مع غيره كيف حاله ومَنْ سرّه فى جفنه كيف يكتمُ[1]

● كان داود عليه السلام يؤتى بالإناء ناقصًا فلا يشربه حتى يتمه بدموعه:

يا ساقى القوم إن دارتْ إلىّ فلا تمزج فإنى بدمعى مازج كاسى[2]

● بكى أبو الشعثاء رحمه الله عند موته فقيل له ما يبكيك ، فقال : لم أشتف من قيام الليل[3] .

● وبكى يزيد الرقاشى فقيل له ما يبكيك ، فقال أبكى على ما يفوتنى من قيام الليل وصيام النهار ثم جعل يقول : يا يزيد مَنْ يصلى لك ، ومَنْ يصوم عنك ؟ ، ومن يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال الصالحة[4].

● الق نفسك فى الدجى على باب الذل وقل « إلهى كم لك سواى ؟ ومالى

---

(١) للطف فى الوعظ لابن الجوزى ص ٦٧ .

(٢) اللطف فى الوعظ لابن الجوزى ص ٦٧ .

(٣) كتاب عقود اللؤلؤ والمرجان فى وظائف شهر رمضان للشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن . دار نبة للطباعة .

سواك . عبيدك سواى كثير وليس لى سيد سواك فبفقرى إليك وغناك عنى ، بقوتك وضعفى ، بعزك وذلى إلا رحمتنى وعفوت عنى ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك .. أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ورَغِمَ لك أنفه ، وفاضت لك عينه ، وذلّ لك قلبه » .

« إلهى .. تمّ نورك فهديت ، فلك الحمد ، عظم حلمك ، فغفرت فلك الحمد ، بسطت يدك فأعطيت فلك الحمد ، ربنا وجهُك أكرم الوجوه ، وجاهك أعظم الجاه ، وعطيتك أفضل العطية وأهناها ، تُطاع ربنا فَتَشْكُر ، وتُعصى فتغفر ، وتجيب المضطر ، وتكشف الضر ، وتشفى السَّقم ، وتغفر الذنب ، وتقبل التوبة ، ولا يُجْزى بآلائك أحد ، ولا يبلغ مدحتك قول قائل . يا حسن التجاوز ، يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ، يامن لا يؤاخذ بالجريرة ، ولا يهتك الستر ، يا واسع المغفرة ، يا باسط اليدين بالرحمة ، يا صاحب كل نجوى ، يا منتهى كل شكوى ، يا كريم الصفح ، يا عظيم المنّ ، يا مبتدئا بالنعم قبل استحقاقها ، يا ربنا ويا سيدنا ويا مولانا ويا غاية رغبتنا ، أسألك يا الله أن لا تشوى وجهى بالنار » .

« اللهم أنت أحق من ذكر ، وأحق من عبد ، وأعظم مَن ابْتُغِىَ ، وأرأف من مَلَكْ وأجود من سُئِل ، وأوسع من أَعْطَى ، أنت الملك لا شريك لك ، والفرد لا ند لك ، كل شىء هالك إلا وجهَك ، لن تُطاع إلا بإذنك ، ولَن تُعصى إلا بعلمك ، تُطاع فتشكر ، وتعصى فتغفر ، أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حُلْتَ دون النفوس ، وأخذت بالنواصى ، وكتبت الآثار ، ونسخت الآجال ، القلوب لك مفضية ، والسر عندك علانية ، الحلال ما أحللت والحرام ما حرمت ، والدين ما شرعت ، والأمر ما قضيت ، الخلق خلقك ، والعبد عبدك وأنت الرءوف الرحيم .

« إلهى وَفِّرْ حظى من خيرٍ تُنزِلُه ، أوْ إحسان تُفْضِلُه ، أو برٌّ تنشره ، أو رزق تبسطه ، أو ذنب تغفره ، أو خطا تستره ، يا إلهى يا من بيده ناصيتى ، يا عليم بضرى ومسكنتى ، يا خبيرُ بفقرى وفاقتى ، يارب أسألك بحقك وقدسك ، وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتى بالليل والنهار بذكرك معمورة ، وبخدمتك موصولة ، وأعمالى عندك مقبولة ، يا مَنْ عليه مُعَوَّلى ، يا من إليه شكوت أحوالى ، قوِّ على خدمتك جوارحى ، وأشدد على العزيمة جوانحى ، وهب لى الجد فى خشيتك ، والدوام على الاتصال فى خدمتك ، حتى أخافك مخافة الموقنين ، وأجتمع فى جوارك مع المؤمنين » .

« اللهم لا تحرمنى خير ما عندك بسوء ما عندى »

« إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى ، أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى أخرى

واذنوباه ! خطيئة لم تبل ، وصاحبها فى أخرى

وادنوباه ! إن كانت النار لى مقيلاً ومأوى

واذنوباه ! إن كانت المقامع لرأس تُهيأ[1]

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا وقمت أشكو إلى مولاى ما أجد
وقلت : يا عدتى فى كل نائبة ومَنْ عليه لكشف الضر أعتمدُ
وقد مددت يدى والضرّ مشتمل إليك يا خير من مُدَّتْ إليه يدُ
فلا تردنّها يارُب خائبة فبحر جودك يَروى كل من يرد[2]

إليك وإلا لا تُشدُّ الركائب ومنك وإلا فالمؤمَّلُ خائب
وفيك وإلا فالغرام مضيَّعٌ وعنك وإلا فالمحدث كاذب

(١) النصيحة فى الأذكار والأدعية الصحيحة للشيخ محمد إسماعيل من ص ٩٨ إلى ص ١٠٩ « مختارات » .

(٢) النصيحة فى الأذكار والأدعية الصحيحة للشيخ محمد إسماعيل ص ١١٠ .

(٣) النصيحة فى الأذكار والأدعية الصحيحة للشيخ محمد إسماعيل ص ١١١ .

يقول إقبال :

نــائح والـلـيـل سـاج سـادل ❊ يهجع الـنـاس ودمعي هاطل[1]

هذه الجفون الموطّنات على السهد لله والتى تجود بدمع كالوابل الهطال ما أحلاها من جفون :

لله أجـفـان عين فـيكِ ساهـرة ❊ شوقاً إليك وقلب بالغرام شج

* * *

أرواحــهـم خشعت لله فى أدب ❊ قـلـوبهم من جــلال الله فى وجل

نجواهـم : ربـنـا : جـئـناك طائعة ❊ نـفـوسـنـا ، وعصينا خادع الأمل

إذا سـجـى الـلـيل قاموه وأعينهم ❊ من خشية الله مثل الجائد الهطل

هـم الـرجـال فلا يـلـهيهم لعب ❊ عن الصلاة ، ولا أكذوبة الكسل[2]

لله ما أحلى أصوات المتهجدين وهى تدعو بأفضل الدعاء من الأدعية القرآنية ـ وما أكثرها ـ ثم الأدعية النبوية ثم ما ورد عن صالحى هذه الأمة فاحرص يا أخى أن تكون مع هذه الرفقة ونـاجِ مولاك وامدحه بما هو أهل له فى دجى الليل

إلهى ❊ ثكلت خواطر أنست بغيرك ... عدمت قلباً يحب سواك

ربـــاه ، عـــفوك إنى ❊ لـــلـــنور مُـدت يـــدايـا

أبكي وأبكي ويبكى دمعى ويبكى بكايا

وحـــفـــنـــة من دعـــاء ❊ غـــرفـــتـه من دمـــايـــا

ولا لـــــــــغيرك دوَّى ❊ يـــارب يومـــاً نـــدايـــا

إلـــيك أنت صـــبـــاحى ❊ مصـــفـــداً فى مســـايـــا

فـــاسـكـب ضـيـاءك إنى ❊ ظـمآن ضـل صـدايـا[3]

---

(١) الأسرار والرموز ديوان لمحمد إقبال .

(٢) رقائق ص ١٧ .

(٣) قاب قوسين ديوان شعر لمحمود حسن إسماعيل

لم أدر من أي نبع أسقى حنين الركايا
والشط لا ماء فيه يطفى اللظى فى حشايا
رحماك يارب هذا إثمى وهذى تقايا
وذاك دربى وهذى على الطريق عصايا
رحماك يارب إنى وزورقى والخطايا
فى لجة .. ليس فيها من الضياء بقايا
جفّت وغاضت .. ولكن مازلت أزجى رجايا
غفرت أم لم فإنى مازلت أدعوك يايا

يارب

• « اللهم نوّر دنيانا

اللهم نوّر دنيانا بنور من توفيقك ، واقطع أيامنا فى الاتصال بك ، وانظم شتاتنا فى سلك طاعتك ، عجبًا لمن عرفك ثم أحب غيرك ، ولمن سمع مناديك ثم تأخر عنك إلهى لا تعذب نفساً قد عذّبها الخوف منك .

ولا تخرس لساناً كل ما يروى عنك
ولا تفقد بصرًا طالما يبكى لك
ولا تخيّب رجاءً هو منوط بك
إلهى ، ضع فى ضعفى قوة منك ، ودع فى كفّى كَفّى عن غيرك ،
ارحم عبرة تترقرق على ما فاتها منك
برِّد كبدًا تحترق على بعدها عنك » يا أرحم الراحمين .

• ونختم فصلنا هذا بمناجاة وتذلل وتسبيح لزين العابدين على بن الحسين رحمه الله (١) :

(١) انظر زين العابدين للشيخ عبد الحليم محمود ص ١٣٣ ، ١٣٤ دار الإسلام ـ القاهرة .

« رب أفحمتني ذنوبي ، وانقطعت مقالتي فلا حجة لي ، فأنا الأسير ببليتي ، المرتهن بعملي ، المتردد في خطيئتي ، المتحير عن قصدي ، المنقطع بي . قد أوقفت نفسي موقف الأشقياء المجترئين عليك ، المستخفين بوعدك .

سبحانك ، أي جرأة اجترأت عليك ، وأي تغرير غررت بنفسي ، مولاي ارحم كبوتي لحر وجهي وزلة قدمي ، وعد بحلمك على جهلي ، وبإحسانك على إساءتي ، فأنا المقر بذنبي ، المعترف بخطيئتي ، وهذه يدي وناصيتي . أستكين بالقود من نفسي .

ارحم شيبتي ونفاد أيامي واقتراب أجلي ، وضعفي ومسكنتي ، وقلة حيلتي . مولاي وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري ، وانمحى من المخلوقين ذكري وكنت في المنسيين كمن قد نُسي . مولاي وارحمني عند تغير صورتي وحالي ، إذا بلي جسمي وتفرقت أعضائي وتقطعت أوصالي .

يا غفلتي عما يراد بي ، مولاي وارحمني في حشري ونشري ، واجعل في ذلك اليوم من أوليائك موقفي . وفي أحبائك مصدري ، وفي جوارك مسكني يارب العالمين . سبحانك الله وحنانيك ، سبحانك اللهم وتعاليت . سبحانك اللهم والعز إزارك ، سبحانك اللهم والعظمة رداؤك ، سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك ، سبحانك من عظيم ما أعظمك ، سبحانك سبحت في الملأ الأعلى ، تسمع وترى ما تحت الثرى .

سبحانك أنت شاهد كل نجوى ، سبحانك موضع كل شكوى ، سبحانك حاضر كل ملأ ، سبحانك عظيم الرجاء ، سبحانك ترى مافي قعر الماء ، سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار ، سبحانك تعلم وزن السموات سبحانك تعلم وزن الأرضين ، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر ، سبحانك

تعلم وزن الظلمة والنور ، سبحانك تعلم وزن الفىء والهواء ، سبحانك تعلم وزن الريح كم هى من مثقال ذرة ، سبحانك قدوس ، قدوس .

سبحانك عجبًا من عرفك كيف لا يخافك ، سبحانك اللهم وبحمدك سبحان العلىّ العظيم .

كم دمعةٍ سُفِحَتْ فى الليل ساربةً
وكم تردَّدَ فى جنبىّ تعليلُ
وكم تنفس صبحٌ ماتسائمه
إلا إبتهالٌ إلى الرحمن متبول
ومانداه سوى دمع أكفكفهُ
يارب علّ دعائى منك مقبول
خفق القلوب دعاء أنت تسمعهُ
وللجوارح تسبيح وتهليلُ